
كتوبيا
للنشر والتوزيع
حارس
المسافر
ميسره الدندراوي

(٥)

السيدة زينب - القاهرة

السابعة مساء

الخامس عشر من ديسمبر عام ألفين وخمسة وثلاثين

مشهد مهيب.

بمجرد أن تمر من بوابة الساحة الخارجية، وتطأ قدماك الأرضية الرخامية، محاطًا ببائعي البخور والشحاذين والمريدين الذين يرددون الأهازيج الصوفية، وما أن ترفع عينيك حتى تصدما بالقبة البيضاء ذات الأحزمة الخضراء، والمنيرة فوق بوابة المسجد الخشبية.

ورائحة بخور ذكية تأتي من خلفك ومن أمامك.

وصوت يأتي من ركن قصي:

مدد يا أم العواجز يا طاهرة مدد

مدد يا رئيسة الديوان مدد

هز سيف رأسه مستحسنًا للنغمات المتصاعدة من لا مكان، واستنشق البخور في سعادة، ثم راح يتقدم إلى يمينه نحو ركن في الساحة بجوار السور الحديدي.

واقترب من تلك البقعة وهو يمشي في بطء، حتى توقف عند

كومة من الأسمال الخضراء البالية، مليئة برقع بنيّة وحمراء، تغطي جسدًا عجوزًا نحيلًا، يتكوم على الأرض الرخامية بجوار السور وحول عنقه مئات من المسابح الخشبية الطويلة، وعينه اليمنى مغطاة بوشاح أخضر بال.

نزل سيف على ركبته في صعوبة، واقترب من العجوز المخبول، الذي يهمهم بقرقرة مثل قرقرة القطط.

- السلام عليكم يا عمنا.

صمت العجوز ذو الأسمال البالية:

- أخوك الأخير باعت معايا السلام.

وكأنما نبتت من عدم، ارتفعت رأس العجوز فجأة، ولمع بريق فضي في عينه الواحدة الظاهرة، وابتسامة واسعة ترتسم على شفتيه:

- مدد يا رئيسة الديوان مددا

صرخ بها العجوز في سعادة، ثم راح يردد كلمة مدد كالمجاذيب حتى خفت. ومن العدم، أغمض عينه الوحيدة وقال في خفوت:

- بلغ أخينا الأخير إني هنتظره في بيت القمر.

تنحنح سيف وقال هامسًا:

- هو قالي إنك هتقول كده.. بس قالي أقولك.. إن الأمر ما يتحملش سفر تاني .

- الأمر ليك يا صاحب الأمر.. والمدد منك يا جالب المدد.

ثم ثنى رأسه، ودفنها بين ركبتيه الطويلتين النحيلتين:

- قالك ايه اخونا الأخير؟

- قالي إن الاوميجا قريت.. قريت أوي.

وكلما نطق سيف كلمة السن فاشتعلت عين العجوز المجذوب، ونظر بها في حدة في وجه سيف:

- يبقى الوقت جه يا ابني.. الوقت جه.

ثم استند على سيف، وعلى عصاه الخشبية التي تعلوها عظمة مصقولة، ونهض كاشفًا عن قامة طويلة نحيلة، فبدا مثل نخلة عجوز ضامرة. حتى أن سيف بدا بجانبه كطفل بجوار جده العملاق العجوز.

- خدني ليه يا ابني.. خدني لأخونا الأخير.

- حاضر يا عمنا.. حاضر

هل قال الجملة الأخيرة بصوت مختلف؟

أم أن التهيؤات زادت في رأس سيف مؤخرًا؟

ومشى سيف عبر الساحة، بينما صوت عصا العجوز تضرب الأرض الرخامية.

- بس اعذرني في السؤال يا حاج.. هم مسمينك المسافر ليه؟

ابتسم العجوز ابتسامة خبيثة، والتمعت عينه من جديد، ثم قال بصوت بدا وكأنه جاء من قلب بئر سحيقة:

- عشان أنا بقالي كتير مسافر.. كتير أوي يا ابني.

ثم رفع رأسه واغلق عينيه صارخًا:

- مدد يا رئيسة الديوان مدد.. مدد يا خضرة يا طاهرة مدد!

* * * * *

الحلقة الثانية

المسافر

(1)

بر أوزير - كيمت

بعد شروق الشمس بقليل

حوالي عشرين ألف سنة قبل الميلاد

انعقد المجلس المبجل.

أوزير العظيم، بقامته المنتصبة، وبشرته الخضراء الشبيهة بلون مزارع كيمت، وعلى يمينه زوجته المحبوبة، أم الأرض وواهبة الحنان، إست المبجلة، وعلى يساره المبجل الذهبي، ذو الأجنحة، رع.

يتراص المبجلون في مقاعدهم الحجرية، سخمت وسيفها

المشقوق، ونفت وحدأتها العملاقة، وتحوتي وكتبه وريشته، ونخبت ذو النسر الواقف على كتفه، وماعت بميزانها وريشتها التي تزين رأسها فائق الجمال، وأنبو الشاب الفتي ذو الأنف الطويلة والبشرة السمراء، والمسافر الملتحف بثياب بيضاء ناصعة، تغطي جسده الطويل الهزيل، وفي يده عصا خشبية، على قمتها عظمة نظيفة بيضاء تضاهي بياض ثيابه، والضفيرة السوداء المجدولة تنحدر من جانب رأسه الأصلع.

إنه المسافر الوحيد دائمًا، خونسو.

تنحنح أوزير ونظر بعينيه الواسعتين تجاه المسافر وعلى شفتيه تتراقص ابتسامة الحكمة:

- افتقدناك كثيرًا يا صبي.

- إن هي إلا سنوات يا سيدي العظيم.. والسنوات في أعمارنا أيام.

ابتسمت إست الحنون، فأشرقت الدنيا في وجه خونسو، الذي حنى رأسه قليلًا تجاه الأم الملكة، بينما تنحنح رع بصوته الخشن الوقور وقال:

- هل مررت بأبيك قبل أن تحضر يا فتى؟

- لا أب لي سوى أوزير أيها المبجل.. لا أب لي سواه.

- ها قد عدنا لهرطقة الصبية وخرافات الشباب.

ابتسم تحوتي، ومال برأسه الصغير على كتف خونسو قائلًا:

- سيدك رع متعكر المزاج اليوم.. فلا تعر كلامه انتباهًا كبيرًا.

ليبتسم خونسو ابتسامة واسعة وهو يجيب بطرف فمه العريض:

- إنما غضبته لصديقه ورفيق دربه.. وليس من أجل هرطقات الصبية وخرافات الشباب.

- صمتًا.. لا أحاديث جانبية!

صاحت بها ماعت الصارمة المحافظة على النظام، القابضة على ميزان العدالة، ثم نظرت في لوم إلى تحوتي، وتابعت:

- والآن قد التأم الجمع.. فعلينا أن نناقش بعض الأمور التي تهم الرعية المبجلة.. أبناء كيمت العظام.

ليلتفت لها رع وعلى وجهه النظرات اللائمة:

- ظننت أن الأمور الهامة لا تناقش إلا في حضرة أوزير وإمست.. والكبار يا ماعت.

- ليس بعد أن قرر أوزير العظيم ذلك ..

التفت رع إلى وجه صديقه الأخضر اللامع، وقال من بين أسنانه في سخط:

- أنت عنيد متصلب الرأس.. قلت لك أن هؤلاء الصبية وهذه الرعية الجاهلة ليسوا قادرين على التصرف بحكمة في هذه الأمور.

- هي أرضهم كما هي أرضنا.. ولا بد لنا أن نشركهم في الأمر.. فنحن

لن نبقى لهم رعاة وناصحين طوال العمر.

ثم التفت إلى النافذة على يساره، والتي تشع نورًا براقًا من أشعة شمس وليدة أشرقت منذ ساعات معدودة، وقال بعينين مارحتين:

- نحن معمرون يا أخي.. لكننا لسنا خالدين.. وبئر بتاح المقدس سوف يجف يومًا.. ولا بد لهم من يوم سوف يكونون فيه رعاة وناصحين لغيرهم ولغيرهم حتى تحين اللحظة.

زمجر رع غاضبًا، وقال:

- وحتى عندما تحين هذه اللحظة .. سنكون هناك.. نحن خالدون كما تخلد هذه الأرض يا أوزير.

- لعمري إن روحك تذكرني بروح القادم من الغرب..

- هل تشبهني الآن بذلك المارق عدو كيمت!!

صدح صوت سخمت الغاضب من فوق مقعدها الحجري:

- لطالما كنت مثله.. غاضبًا ساخطًا متشوقًا للخلود.. حتى ظننت أنك قد تلقي بنا جميعا في النهر المقدس إذا منحك هذا الخلود أيها المبجل ذو الأجنحة.

- احذري وأنت تخاطبينني يا فتاة.. أنا أبوك قبل أن أكون سيدك.

تهدل صوت إست الحنون، واكتسب قوة وعنفوان أم قلقة على أطفالها المتصارعين:

- لكنك لا تعرف يا أخي.. إن الخلود لا يأتي من بئر ماء ولا من أرواح هائمة في الفضاء.. الخلود لا يأتي إلا من هنا.

وأشارت لصدرها الممتلئ بسبابتها، فكور قبضته في غضب، وراح يدق بها صدره، وتألق لونه الأخضر حتى كاد يضيء المكان.

- هل سمعت يا رع. الخلود يأتي من هنا. من هنا يا أخي. لو كان كل ما نفعله يأتي من هنا. لنلنا الخلود حتى وإن سكنا القبور الحجرية. وأهيل علينا التراب. وحتى تحين لحظة النهاية. سأظل أفعل كل ما أفعله وهو ينبع من هنا.. من هنا فقط.

بينما مال أنبو الشاب على أذن تحوتي وقال:

- عن أي لحظة يتحدث سيدي أوزير؟

- عن اللحظة التي سوف يحين فيها الوقت.. وتغلق الدائرة للأبد.

- أي دائرة يا تحوتي؟

نظر تحوتي بطرف عينه إلى الصبي، وربت على وجهه بكفه طويلة الأصابع متابعًا:

- لا زلت فتى شابًا.. ستعرف الكثير يوم يحين الوقت.

صوت إست الودود يصدح عبر القاعة:

- تعالَ يا أنبو يا ولدي.. تعال واجلس بالقرب مني..

فيجيبها صوت نفت الساخر النعام:

- نعم يا ولدي.. تعال واجلس بجوار خالتك.. فهي لا تطيق فراقك لحظات.

فيهز الشاب رأسه ويرحل من جوار تحوتي.

وعندها، يميل خونسو برأسه قائلًا في غضب مكتوم:

- لماذا لم تخبر الشاب بما رأيته وعرفته.. من حقه أن يعرف كما عرفنا.

- سيعرف.. سيعرف عندما يأتي وقت المعرفة.. فالمعرفة سلاح يا أخي.. والسلاح في أيدي صبي مثله.. خطر عظيم.

- أنت وحكمك وكلماتك الملتوية.. إن الحياة بسيطة جدًا يا رجل.. بسيطة ولا تحتاج إلى كل هذا الغموض وكل هذه التوريات والحكم المقيتة.

فيلتفت له تحوتي، والبريق الرمادي يشع من مقدمة رأسه.

ثم يغلق عينيه.

ويبدأ السريان من عقله إلى عقل خونسو.

وعندها رأى خونسو كل شيء.

رأى أجرامًا تتصادم، ودماءً تسيل، وبحارًا تتحول إلى لون الدم، ورجالًا يصرخون وهم ينفجرون كما تنفجر عيون الماء في الصحاري القاحلة، ونساءً يطيرن في السماء بلا أجنحة، وأعمدة من الحجر تهوي فوق رؤوس صانعيها، وكراتٍ من نار تضرب الأرض

فتحيلها إلى جحيم مستعر وطيوزا ترمي بأسهم فوق رؤوس الأطفال فتقتل برائتهم، ووحوشًا تعوي فيحيل عوائها الأرض إلى خرائب.

رأى كل شيء.. كل شيء.

ولكم تمنى لو صمت.

ولم يرَ أي شيء.

* * * * *

(2)

العباسية - القاهرة

العاشرة مساء

الخامس عشر من ديسمبر عام ألفين وخمسة وثلاثين

«النهايات دائمًا شبه بعضها يا ميرفت.. حتى لو البدايات مختلفة»

تمط إيرين شفتيها متقززة من فرط المباشرة والتكرار.

لماذا يصر كتاب مسلسلات التليفزيون على المباشرة وتكرار الكلام؟! لماذا لا يحاول أحدهم تغيير الجمل المحفوظة التي يحشرونها في سياق كلام تافه سخيف بين شاب أغمض عينيه نصف إغماضة وفتاة رقيعة تضع الأصباغ؟؟ كلتاهما عبرت الأربعين ببضع سنوات وتدعي أنها خريجة حديثة لا تزال في مقتبل عمرها!!

تضع إيرين طبق اللب والسوداني الأسواني فوق حجر جلبابها الصوفي وفوق كتفيها ذلك الشال الذي أهداه لها أبوها وهي بعد مراهقة في الثانوية، تخطو أولى أيامها في الحياة.

يومها نظرت له مندهشة:

- بس ده تقيل أوي يا بابا!

- أنتِ شايفاه تقيل عشان أنتِ لسه خفيفة يا روح بابا.. بكرة لما تكبري هتلاقيه خفيف أوي ..

- لما أكبر لحد كام سنة؟

- لحد ما تلاقيه بقى خفيف يا حبيبتي.. العمر الطويل ليكِ.

لفتة منها نحو صورة معلقة في إطار كان يومًا مُذهبًا وسقط طلائه، صورة بهتت ألوانها لوجه أبيها المتورد يبتسم في وقار إلى كاميرا مصور بارع، أخفت عدسته ذلك الشق في رقبة أبيها من أسفل أذنه حتى أسفل ذقنه.

لم تكن تتجرأ أن تسأله عن ذلك الشق الطويل مخافة أن تضايقه، إلا أنه لم يكن يخفيه حتى في ليالي الشتاء القارصة، وكأنه لم يملك غيره كي يتفاخر به في أيام عزت فيها أسباب التفاخر.

- بابا.. هي دي تعويرة قديمة؟

- اه يا حبيبتي.. دي بقالها كده قد عشر سنين.. تقريبا من ألفين وحداشر كده.

- يااااه.. طب ودي ايه.. وليه ما قشرتش ووقعت زي التعويرة اللي في ركبتي؟

- عشان التعويرة اللي في ركبتك تعويرة شقاوة ودلع.. فا لازم تقع وتمشي.. لكن دي يا حبيبتي تعويرة شجاعة وقلب.. عشان كده لازم تفضل.

ارتسم شبح ابتسامة على ركن فمها الأيسر تحولت إلى ابتسامة كاملة برزت معها غمازتان صغيرتان على جانب شفتيها.

ابتسامة ذكرتها بصاحب الغمازتين.

- أنتِ عارفة كويس أنا بحبك قد ايه.

- وعشان عارفة كويس إنك بتحب نفسك أكتر من أي حد.. بقولك لازم تمشي ..لأنه مش هينفع.

لماذا تركته يوما وآثرت الرحيل؟؟

لماذا وضعت ثقتها في نفسها الضعيفة، لماذا ظنت أنها ستجد سلوانه في غيره؟ غمازاته التي حفرت بيد إلهية حكيمة وقلبه الذي كان كماء بارد في قيظ نهار صيفي.

- «أنا مقدرش أستغنى عن مستقبلي وحياتي يا وائل»

- «يبقى أنتي اللي اخترتِ يا ميرفت.. وأنا مفيش قدامي إلا حل واحد»

ستخبرك يا ميرفت عن ما يحدث الآن فربما ترجعين في قرارك.

ستخبرك يا ميرفت عن معنى أن تعيشي بلا أب، بلا أم، بلا إخوة، حتى سلوانها الوحيد تزوجت وهاجرت مع زوجها بعيدًا، وأصبحت لا تمثل إلا صورة في محادثة إلكترونية بغيضة.

ستخبرك عن حياة تحولت إلى روتين يومي مقيم.

ستخبرك عن صورته التي لا تزال تزين ملفًا مختفيًا في محمولها، وعن كابوس مقيم تراه كل لحظة تغمض فيها عينها، وهي متكومة كالقطة أمام تلفاز يذيع مسلسلًا تلعبين فيه أنت وممدوح دور البطولة.

مسلسل أصبح من كثرة ما شاهدته إيرين، أصبح صديقًا يتردد صدى كلامه في أذنيها، وممدوح يترك يدك الرقيقة يا ميرفت، وأنت على بوابة الخروج للطائرة، وينظر لك نظرته الجامدة التي يحاول جعلها رومانسية، وهو يقول في حزن مصطنع

- «الوداع يا ميرفت.. الوداع للأبد»

وعند تتر النهاية، وقبل أن تسلم إيرين عينيها لنوم الأريكة المرهق، رن هاتفها المحمول، وراح ينعق غاضبًا:

- الو.. مين؟

- اصحي يا دكتورة وركزي معايا.

صوته القوي يأتي من بين موجات الهاتف المحمول، فتشعر

بأحاسيس متخبطة غريبة تضرب ثباتها.

- خير يا كر.. يا سيادة المقدم؟

صمت قليلًا، ثم سمعت صوته يتنحنح متابعًا:

- عندي ليك خبر مهم جدًا جدًا.

- خبر ايه خير؟

صمت للحظة أخرى متابعًا:

- من شوية كده.. رجالتي كانوا بيراقبوا معرفة قديمة.. لقوه طالع من بيته في المعادي لأول مرة من سنة تقريبًا.. وراح السيدة زينب.. وقعد في ساحة الجامع بتاع عشر دقائق.. وبعدين خرج معاه مجذوب عجوز.. أعور وطويل كده.

همست إيرين بصوت مكتوم:

- ويا ترى مين الاخ ده؟

- بيسموه هناك المسافر.. بيقولوا إنه من الواحات.. وجه لزم السيدة والحسين بعد ما انجذب.

كادت تخبره أنها هي الأخرى أوشكت على الانجذاب، لكنها آثرت الصمت الجميل.

- مش مهم مين الأخ ده دلوقتي.. المهم مين كان قاعد مستنيهم في العربية اللي خدتهم ومشيوا.

زمجرت إيرين غضبًا:

- بطل سامبنس واخلص يا كريم.

- اللي راح السيدة وخرج بالمجذوب.. كان السيد سيف الدين إبراهيم عبد الفتاح ..الضابط السابق في المباحث العامة.

- الموضوع بدأ يثير اهتمامي.

ضحكة خافتة أشبه بأنّة صدرت عبر سماعة الهاتف، ثم تلاها صوت كريم المشبع بتيارات السعادة والإثارة:

- أما بقى اللي كان مستني في العربية.. فكان أخونا محمد حارس.. محمد حارس بنفسه.

* * * * *

(3)

سيخت أم - صحراء كيمت الغربية

قرب الفجر

حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد

- كل شيء تغير يا ابن آمون.. فلم يعد لك هنا بقاء.

هكذا قال خونسو لنفسه يومًا، وهو جالس فوق صخرة عالية في صحراء الهرم الأحمر بجوار ما تبقى من سريان النهر العظيم.

كان يراقب انعكاس وجه إياح الفضي على سطح النهر ويتذكر ما

كان وما قد مضى.

رحل أوزير بعيدًا، ثم قرر أنه لن يشرب من بئر بتاح ثانية، ومات كما يموت البشر.

- كل البشر إلى زوال يا ابن موت.

حتى موت رحلت، قالت أنها لا تطيق الحياة بجوار آمون، لكنه يعرف، يعرف أنها أصبحت لا تطيق الحياة بعد أن رحل ابنها البكر إلى أحضان رع، وأصبح قائدًا لجيوشه التي راحت تعيث فسادًا في كيمت، وتنزل غضبه وسخطه على كل من قال «لا».

لكنه قال «لا»

قالها عالية صاخبة في وجه أبيه المقدس، بل ورفع عصاه في الهواء.

لا يذكر إلا انهم قد وصموه، ولعنوه، وسموه (الشيطان).

فقط لأنه قال «لا».

وصموه بالشيطنة والشر لأنه رفض.

رفض التأليه والتقديس، والعروش الذهبية، والصور المنحوتة فوق جدران المعابد.

المعابد التي بناها الفانون ليقدسوا الرب الواحد، فحولها المبجلون إلى مسارح تمثل فيها أسوأ مسرحيات التقديس المزيف.

لهم هم من دون الرب الواحد.

آمون رع.. رع آمون ..

وهلم جرًا.

وعندما ثار عليهم ورفع عصاه، ثاروا عليه ووصموه بالشيطنة والأبلسة.

ولأن أوزير علمه أن المعطيات تقود إلى نتائج تبنى عليها، وأن الزبد لا يأتي إلا من خض الحليب، فقد حدث ما كان يتوقعه الجميع.

في ذلك اليوم، رفع سيفه القصير في وجه العملاق خنوم، فقط لأنه بصق خلف كتفه عندما تحدث الملك.

ساعتها نظر الملك إلى خنوم غاضبًا، وقال بصوت ارتجت له جدران قصره الحجري:

كيف تبصق في حضرة الملك أيها المبجل؟

لكن خنوم مسح وجهه الأخضر بكفه العملاق، وهمس من بين أسنانه المتقاطعة:

- نحن من جعلناك ملكا.. لا تنس.

- بل حور.. حور هو من ألبسني التاج ..

- وحور منا.. ونحن أعمامه وابناء عمه.. لذا.. فأحذر كيف تخاطبني.

ثم أدار ظهره للملك وهو يضحك في استهزاء، ليجد نصل سيف

خونسو أسفل ذقنه.

- ماذا تفعل يا فتى؟

يومها، التمعت عينا خونسو الفضيتان، وسطع الضوء المنعكس على جبهته العريضة:

- أحذرك أن تتجاوز حدودك مع ملك كيمت.. أو أن تنسى عهد بتاح وأوزير.

ثم كشر عن أنيابه وهو يشد أصابعه الطويلة فوق مقبض سيفه:

- الأرض لأصحابها.. والملك من أصحاب الأرض.. والملك سيد الأرض.. لذا ....

ثم رفع السيف، وأشار بذؤابته اللامعة نحو موضع البصقة فوق الأرضية اللامعة:

- انحن واستعد بصقتك ..

استشاط خنوم غضبًا، وتقوس ظهره، وارتفعت مقدمة رأسه الخضراء غضبًا.

- خنوم.. إذا كنت تنوي التحول الآن.. فتذكر أنك في حضرة ابن آمون.

زمجر خنوم، وراح صوت ثغائه يدوي في القصر ككبش عملاق، بينما رأسه ينتفخ غضبًا:

- أعد ما قلته يا ابن آمون.

ضحك خونسو ساخرًا، وهو يسند سيفه على كتفه العظمي الرفيع:

انحن واستعد بصفقتك أيها الكبش.

زمجر الكبش المقدس، المتحول العشرين، معبود الجنوب.

ثم هجم.

لكن السيف انغرس في صدره.

واخترق السيف الجلد المكسو بفراء خشن، والضلوع العظمية العملاقة، واستقر في القلب العملاق.

وتحشرج صراخ خنوم.

وسقط على وجهه فوق الأرض اللامعة.

بينما فوق رأسه وقف خونسو ناصبًا قامته الطويلة النحيلة..

ومن يومها، اكتسب شهرته وسمعته التي طاردته حتى طردته إلى الصحاري.

«خونسو قاتل السادة»

الشيطان الذي مضى.

أخرجه صوت الزمجرة العميقة من بئر ذاكرته السحيقة، فلف رأسه النحيل إلى الصخرة العملاقة، التي أنارها وجه إياح الفضي، ليجد

مصدر الزمجرة.

صوت الزمجرة يتعالى، يعقبه عواء طويل.

ذئب أشهب غاضب، يقف ناصبًا فراءه، والزبد يسيل من شدقيه.

- ارحل بلا شر.. ارحل.

يتعالى صوت الزمجرة، والذئب ينساب من فوق الصخرة، واطئًا الرمال الكثيفة، وهو يقترب من موضع جلوس خونسو.

- ارحل يا ابن الليل.. فلست قاصدًا شرًا بك.

أنفاس الذئب الغاضب الجائع تتطاير مع نسمات الهواء نحو وجه خونسو، حاملة معها رائحة أنفاسه الشبيهة بجثة متعفنة.

وراح الذئب يقترب من جسد خونسو الجالس الساكن فوق الرمال.

ويقترب.

حتى ضربت أنفاسه وجه خونسو، وصارت زمجرته الصاخبة تحيط به كرياح الصحراء.

- إذن.. فلا تلومن إلا نفسك!

ومع انقضاضة الذئب الجائع الشرس، ارتفع ذراعا خونسو النحيلتان، والتفتا حول عنق الذئب، فراح يئن كجرو خائع.

بينما أغمض خونسو عينيه الفضيتين، وراح جسده النحيل يشع بضوء فضي لامع.

والذئب يئن.

وخلف العينين المغلقتين، راحت الصور تتدافع.

غضب رع.

سخط آمون.

ابتسامة موت.

ضحكات ست.

دموع أنبو.

ثم رن الصوت العميق في رأسه

- اتركه أيها المسافر.. اتركه وسيمضي.

تراخت أصابعه من حول رقبة الذئب، فراح يئن في ألم، وعوى عواءً حزينًا رفيعًا نحو وجه إياح، ثم ركض هاربًا.

وفتح خونسو عينيه الفضيتين.

وأمام عينيه الذاهلتين، كان يقف مهيبًا، والقمر الفضي يلقي بضوئه على جسده، راسمًا ظلًا طويلًا مهيبًا كصاحبه.

- تحوتي!!

قالها مندهشًا، هائبًا، وجلًا.

- افتقدناك أيها المسافر.

- لا أعتقد.

ثم نهض متكئًا على عصاه الخشبية، واستدار مواجها بعينيه وجه القمر الفضي اللامع.

- أنا شيطان متعطش للدماء.. شيطان لا يعرف إلا قول لا.

- إن كنت شيطانًا.. فالمجد للشيطان إذن!

ضحك خونسو ضحكة عالية متحشرجة، ثم استدار إلى وجه تحوتي الجامد المهيب.

- لو سمعك رع.. لفرد جناحيه الذهبيين وأحرقك بنار غضبه.

ثم اقترب منه بخطوات بطيئة ثقيلة:

- ماذا تريد يا ابن رع؟

- أريدك أن تذهب شمالًا.

ثم أشار بأصبعه الرفيع إلى نجم الشمال البارز في كبد السماء.

- هل تظن أنني أصبحت بربريًا سفاكًا للدماء.. لأنني قتلت اثنين أو ثلاثًا من المبجلين.

- خمسًا..

- نعم نعم.. خمسًا.. نسيت أنك تدون كل شيء أيها الكاتب.

ابتسم تحوتي ابتسامته الخاطفة، التي تموت بمجرد أن تولد.

- بل أريدك أن تذهب لهم معي.. كي نعلمهم.

- وماذا نعلمهم؟

استدار تحوتي نحو الشمال، وهو يعقد كفيه خلف ظهره:

- نعلمهم كيف يصبحون بشرًا.. كما وصانا بتاح.. وأوزير.

ثم نظر بطرف عينه، وأنفه تشم رائحة الحيرة وهي تشع من جلد خونسو، متابعًا:

- أم تريد أن تبقى هائمًا على وجهك.. تقتل ذئاب الصحاري وهوام الجبال؟

- أنا احمي المسافرين الضالين يا ابن عم.

- أنت تحمي نفسك المضطربة الهائمة يا ابن آمون..

وأنا أتيتك كي تصنع لها هدفًا تسافر له وتستقر.

ثم التفت تحوتي إلى العصا الخشبية، ووضع كفه المعروقة فوقها متابعًا:

- لم أسمع منك ردًا بعد.

لكن خونسو لم ينطق حرفًا.

لأنه كان هناك.

تحوتي.

كان يجول في رأس خونسو كأنه يمشي في مرج فسيح.

- لا تحاول يا تحوتي.. رأسي ليست لك.

- إنما أبحث عن ردك الذي تخفيه.

ثم ابتسم واضعا كفه فوق كتف خونسو:

- إذن.. أسلم لي رأسك وجسدك يا ابن آمون.. حتى نرحل.

- إلى أين يا سيدي؟

أغمض تحوتي عينيه، وراح الضوء الرمادي يشع من جلده الأسمر اللامع

- إلى جزيرة في البحر العظيم.. إلى كيفتيو.

* * * * *

(4)

المقطم - القاهرة

الحادية عشرة مساء

الخامس عشر من ديسمبر عام ألفين وخمسة وثلاثين

يقف محمد حارس مستندًا بكفيه إلى ذلك السور الحجري الصغير.

عيناه تنظران إلى الأفق المظلم، ونجم الشمال يلمع فوق رأسه المزدحم.

بينما على طرف الحديقة الصغيرة، فوق العشب الأخضر الندي بفعل الرطوبة المتصاعدة، يقف المسافر بقدميه العاريتين، وأسماله البالية، والمسابح المتدلية من رقبته الطويلة.

يقف رافعًا رأسه، وهو ينظر إلى القمر المكتمل في هيام:

- هل اشتقت لإياح يا أخي؟

- وهل فارقته يومًا؟!

قالها المسافر في هيام، ثم أغمض عينيه وراح يتشمم الهواء حوله متابعًا:

- لا أشم رائحة الغريب البدين.. أين ذهب؟

في الداخل.. يضع بعض الماء الساخن فوق الشاي ..

ابتسم المسافر في خفوت:

- لم أفهم هذا المشروب قط.

- ستعتاده طالما بقيت في هذه الأرض..

ثم اقترب منه في هدوء، ووقف إلى جواره واضعًا ذراعه فوق كتفه النحيلة وهو ينظر إلى القمر كأنهما صبيان يحلمان.

- شِختَ يا خونسو.. شِختَ وأصبحت أيامك أقل من سنابل الصيف.

ابتسم المسافر من جديد، وقبض على عصاه قائلًا في هدوء:

- منحناك آخر ما احتفظنا به من البئر أيها الأخير.

- لم أكن أريد ذلك.. كنت أريد الرحيل إلى دار أبي أوزير.

- لم يحن وقتك بعد يا أنبو.. لم يحن وقتك بعد.

رفع حارس يده من فوق كتف المسافر ووضعها من جديد فوق السور الحجري:

- لم أكن أبتغي الحياة لمائة عام أخرى يا خونسو.. لكنكم لم تمنحوني الخيار.

- عندما تقابل تحوتي يومًا.. أخبره بذلك.. فأنا لست إلا تابعًا.

ثم نظر له في جنون وعيناه تلمعان، وقال بلهجة مصرية صميمة:

- تابع أترك يا طاهرة يا رئيسة الديوان.

ضحك حارس ضحكة مجلجلة، وهو يربت على كتفه، ثم همدت فورة ضحكاته مع دخول ميف إلى الحديقة، حاملًا صينية معدنية، فوقها كوبان من الشاي الساخن.

- الشاي يا.. يا.. الحقيقة مش عارف أقولكم يا ايه.

ثم وضع الصينية فوق الطاولة الصغيرة المصنوعة من البوص المجدول، وتابع:

- أصل الجماعة تحت بيسموكم آلهة.. او ملايكة.. لكن حارس قالي إنكم مش آلهة ولا ملايكة.. وأنا الحقيقة....

ثم قطع عبارته وهو يرشف رشفة مسموعة من كوب الشاي، رنت في الصمت المخيم على الحديقة الصغيرة.

- ما تشيلش هم المسميات يا سيف.. احنا زينا زيك.. كل اللي يفرقنا عنك إننا عشنا اكتر منك شوية.

- صعب أوي يا أخ مسافر إن ثلاثين ألف سنة يبقوا شوية.. ما تركبش!

ثم اتبع جملته برشفة أخرى، فربَّت حارس على كتف المسافر وقاده إلى كرسي من البوص، وجلس إلى جواره متناولًا كوب الشاي الساخن بين كفيه.

- خير يا.. يا حارس قالها وهو يضغط على كلمة حارس، وكأنما يذكر نفسه بها - مش خير خالص يا سيد مسافر وده سبب إننا قعدنا ندور عليك لحد ما وصلناك مدد المسافر ساقيه الطويلتين، واستند على عصاه حتى لامست خده الضامر وانعقد وجهه فتجعدت ملامحه المتغضنة علامة على الاهتمام.

- هتقوله أنت ولا أقوله أنا يا حارس؟

فرد حارس كفيه فوق مسندي المقعد وقال في هدوء:

- الظاهر إنها قربت يا أخي.

- ايه اللي قرب بالضبط يا حارس؟

- النهاية.

قلب المسافر عينيه الرماديتين بين حارس وسيف، ثم دق بعصاه فوق العشب المبلل:

- اتكلم يا حارس.. نهاية ايه؟

- الدائرة.. نهاية الدائرة يا أخي.

نطقها بلغة غريبة على أذن سيف، تختلط فيها حروف الواو بالميم بالحاء، فتنحنح سيف:

- بالمصرية الله يسترك يا حارس.

- ما هي دي مصرية برضه يا سيف يا ابني.

أجابه المسافر وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، ثم نظر إلى حارس نظرة مطولة متابعًا:

- أنت عارف إن الدايرة ما بتقفلش إلا لما الشروط تتحقق.. وأنت استبعدت واحد من الشروط لما قتلت الملعون.

- فاكر يوم ما تحوتي نور بصيرتك؟

ضاقت عينا المسافر، وبدا الألم على تعابير وجهه المتغضن، وهو يتذكر تلك التجربة المؤلمة:

- بعد اليوم ده بخمسين سنة.. فتح لي واحد من كتبه.. وحكالي حكاية الدايرة.. والمخروط.. والانحدار.. والإغلاق.

- عارف.. عارف كل ده.. بس الدايرة ليها شروط عشان تتقفل وتبدأ

من جديد.. ومن ضمن الشروط دي إن القادم من الغرب يكون موجود ساعتها.. إلا إذا...

ثم صمت، واتسعت عيناه، وفتح فمه كأنما تذكر شيئًا غاب عن عقله منذ زمن سحيق، فقال حارس وكأنما يكمل جملته:

- إلا إذا كان دمه بيجري في جسم حد من نسل المبجل.

نظر سيف إلى وجه حارس بطرف عينه وهو يرشف الشاي متابعًا:

- من نسل رع يعني.

قبض المسافر على عصاه من جديد، واعتصرها بقبضته حتى كاد يفتتها، وهو يقول هامسًا في غضب من بين أسنانه:

- وادجيت.

ثم نظر بعين غاضبة، وجسده يتألق بلون فضي باهت فوضع حارس كفه فوق ركبته هامسًا:

- اهدأ يا أخي.. اهدأ.

راح الضوء الفضي يتألق، بينما استحالت عينا المسافر إلى لون فضي لامع، فتراجع سيف في مقعده، وهو يضم كوب الشاي الفارغ إلى صدره:

- حارس.. حارس.

همس بها بحروف مرتجفة، لكن حارس نظر له نظرة مطمئنة ثم

عاد يضغط بكفه على ركبة المسافر:

- اهدأ يا خونسو.. لا بد أن تهدأ حتى...

نهض المسافر فجأة قاطعًا عبارة حارس، وسرى فوق الأرض العشبية، حتى اعتقد سيف أنه كالماشي في الهواء، ورفع عصاه الخشبية وهو ينظر إلى القمر والضوء الفضي يشع من جسده.

بينما على السماء أمام عيني سيف المذهولتين، ارتسم مشهد لامرأة حسناء، رأسها مثلث كالثعابين، وشعرها أسود طويل يسري حتى أسفل خصرها.

وفي عقل سيف المندهش، راح صوت مصطفى يدو:

- خد ديلك في سنانك واهرب.

- شش.. بس يا مصطفى.. مش وقتك أبدًا.

- أنت مش قد اللي بيحصل ولا اللي هيحصل.

أما المسافر فراح يرتعش بلا توقف، رافعًا عصاه نحو السماء.

ثم بلا سابق إنذار، هدأ كل شيء.

انطفأ الضوء الفضي كأن لم يكن، وتوقفت الصورة المرتسمة على امتداد السماء الشتوية الصافية، وارتخت العصا إلى جوار حاملها.

والتفت المسافر إليهما، ثم عاد ماشيًا وعلى وجهه أمارات الإجهاد، وتجاعيد وجهه تزداد عمقًا.

- أرني ما لديك.

مد حارس يده إلى سيف، فناوله ثلاث صور في حجم جريدة صغيرة، ليرفعها حارس في وجه المسافر وأمام عيني سيف، راحت عينا المسافر تشع بذلك الضوء الفضي، وراح يهمس بلا توقف:

- أوميجا.. أوميجا..

ثم أشار بأصبعه الرفيع -الذي استطالت أظافره واتسخت- نحو نقطة في قلب الصورة متابعًا:

- نابين الحية.. في مكان العينين..

ثم ضاقت عيناه وهو يراقب الصورة من جديد:

- الحبال المعلقة في الهواء.. والجسد المصلوب..

ثم أشار بأصبعه من جديد إلى موضع في الصورة:

- النار.. النهاية.. النار.. النهاية.

وراح يردد الكلمتين بلا توقف، ورأسه يتأرجح فوق كتفيه وكأنه بالفعل مجذوب من مجاذيب الأولياء.

استبد الفضول بسيف، فنهض من مكانه ينظر إلى الموضع الذي يشير له وهو يردد تلك الكلمات.

وكان أصبع المسافر يقف مباشرة فوق حرف أوميجا اللاتيني المحفور بالحرق فوق صدر إحدى الجثث.

بينما خرجت الحروف من بين شفتي حارس، وهي مغموسة في مداد القلق:

- أنت تقصد أنها لم تكن بمفردها!

نظر سيف إلى وجه حارس، ليرى صواعق القلق تضرب عينيه، بينما تابع المسافر:

- لم.. ولن.. لأنه كما قال تحوتي..

ثم ضرب العصا على الأرض العشبية:

- يأتون كفرسان الجحيم فوق النار.

- أنت لا تقصد ما أفهمه.

فتح المسافر عينيه، ونظر إلى حارس في حدة:

- بل أقصد كل ما فهمته!

- لكني قتلت أحدهم في المرة الأخيرة.. بينما هرب الثاني إلى ما وراء المحيط!

- وهل تفنى الضباع إذا ما تفرقت يا أخي؟

رفع سيف صوته وهو يقف بينهما:

- ما تكلمونا عربي يا جماعة.. أنا مش فاهم حاجة!

نظر المسافر له في حدة، ثم أولاهما ظهره ومشى مستندًا على

عصاه نحو السور الحجري القصير

بينما اقترب سيف من حارس وقال هامسًا:

- هو ايه اللي شافه في الصور خلاك قلقان كده ووشك اتغير؟

- شاف اللي كنت ما أتمناش إنه يشوفه!

- أيوة اللي هو ايه يا حارس؟

نظر له حارس نظرة هزت كيانه، بينما صوت مصطفى يدوي في رأسه:

- سيف.. أنت لسه ما فهمتش.. اللي شافه كان ...

قطع حارس صوت مصطفى الذي يدوي في عقل سيف متابعًا:

- بداية النهاية يا سيف.. بداية النهاية.

تذكر أنك حملت رواية حارس المسافر حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

* * * * *

(5)

مصر الجديدة - القاهرة

العاشرة صباحًا

السادس عشر من ديسمبر عام ألفين وخمسة وثلاثين

طقطق ماهر الرفاعي بشفتيه معترضًا، ثم رفع يده مشيحًا بها في وجه سمر من خلف مكتبه الخشبي العملاق:

- لا يا سمر لا.. كده هنبدأ نخش في سكة صدام مع الحكومة.. وأنتِ عارفاني لا أهوى الصدام نهائيًا.

زفرت سمر في ملل، وقالت ورائحة نفاد الصبر تفوح من كلماتها:

- يا ريس.. افهمني بس.. ما هو ما ينفعش تبقى المواقع كلها رايحة جاية عالموضوع وعمالة تنشر في تكهنات وتوقعات.. واحنا عمالين نلمح ونتسحب زي اللي عامل عملة.

زمجر ماهر الرفاعي غاضبًا، ودفع مجموعة من الأوراق أمامه، فسقطت عبر حافة مكتبه الخشبي العملاق.

بينما راحت سمر تنظر له في دهشة.

أين اختفت تلك الجذوة المقدسة التي كانت تملأ هذا الكيان الجالس أمامها؟

أين ماهر الرفاعي، الذي كان يصطاد المواضيع الغريبة، ويصنع منها قصصًا صحفية مدوية، ترفع أرقام التوزيع في جريدته إلى مصاف الصحف الكبرى؟

والآن، هي لا ترى سوى كيان خاو مرتخ.

كيان قديم مترهل، عفا عليه الزمن، مثل ذلك المكتب الخشبي

الذي يستند عليه الآن.

وتذكرت كيف كان أبوها، وكيف أصبح.

الأستاذ محمود غنيم، المحامي الذي كان يهز قاعات المحاكم، ويصمت السامعون إذا فكر أن يتنفس، ويحترمه القضاة أكثر من أنفسهم.

الآن، هو كيان خاو مترهل، يجلس فوق كرسي متحرك، ولا يقوى على دخول الحمام بمفرده.

الكل يشيخ ويضمر يا سمر.

ولذلك دائمًا ما تمنت، بل ودعت الله في كل ليلة، أن تسلم روحها وهي بعد صامدة قوية.

حتى لا يرثيها أحدهم كما تفعل هي الآن.

- بقولك ايه يا سمر.. أنتِ هتلفحي بس.. هتحومي حوالين الموضوع زي الناموسة الشبعانة بالضبط.. وأول ما تلاقي العرق اللي هتقرصيه.. هتنقضي عليه.. وساعتها يبقى ننشر الموضوع بالكامل.

أخرجتها كلمات ماهر الرفاعي من نفق خواطرها المظلم، فتنحنحت كأنها على وشك إلقاء خطبة عصماء:

- الاي تشوفه يا ريس.

- ايه ده.. ببساطة كده.. من غير ما تجادليني ولا تقرفيني زي

عوايدك؟

- أنا قولت المرة دي أبقى شاطرة وأسمع الكلام.

ارتسمت أمارات الغضب على وجهه:

- بنت يا سمر.. أنتِ هتعمليهم عليا.. ده أنا ماهر الرفاعي.. يعني مش بس اللي علمتك الصحافة.. لا ده أنا خالك اللي مربيك.

- ما هو عشان كده أنا ما شوفتش رباية يا ريس.

- بنت.. احترمي نفسك.. وتعاليلي دوغري كده.. أنتِ ناوية تعملي ايه؟

نهضت سمر وهي تحمل حقيبتها الصغيرة المكتنزة فوق كتفها:

- ناوية أحوم زي الناموسة الشبعانة.

- في الموضوع ده بس.. لكن في موضوع تاني عايزك تتعاملي معاه كأنك ناموسة جعانة ورزلة كمان.

- موضوع ايه يا ريس؟

مد يده الرفيعة نحو ورقة صغيرة على يمينه، ودفعها بيده عبر سطح المكتب نحوها.

أمسكت سمر الورقة بأظافرها المطلية بلون أخضر لامع، ثم مرت بعينيها فوق الكلمات الثلاث المكتوبة فوقها بخط رقعة، وبقلم أسود عريض الخط.

وهي تحب الأقلام السوداء عريضة الخط.

- نادي أبناء كيمت!

رددت الكلمات بلا شعور، ثم رفعت عينيها المختفيتين خلف عدسات عوينات مستديرة أنيقة نحو وجه ماهر الرفاعي، لتصطدم بنظراته اللامعة التي تعرفها جيدًا.

- وده ايه ده يا ريس.. ده فريق كورة جديد؟

- فريق كورة.. فريق جمباز.. فريق باليه مائي.. مش هتفرق.. إن شالله يكون فريق طاولة.. المهم إنه موجود.. وظهر من فترة.. ومحدش عارف عنه حاجة.

طوت الورقة في عناية ودستها في جيب حقيبتها.

- والمطلوب يا ريس؟

- تجيبيلي خبر النادي ده.. عايز أعرف كل حاجة عنه..

- وافرض طلع حاجة هايفة ومالهاش معنى؟

عاد بظهره في مقعده الجلدي الوثير وعقد كفيه أسفل ذقنه واتسعت ابتسامته الغامضة، المصاحبة لبريق عينيه الذي كاد ينير الغرفة. ثعلب عجوز يطل برأسه من جحره الحصين.

من قال إن الثعالب إذا شاخت، لن تظل ثعالب؟!

- مش هيطلع حاجة هايفة.. لأن المعلومة اللي عندي بتقول.. إنه

مش حاجة هايفة أبدًا.. المهم.. عايزك تجيبيلي خبره كويس.. يالا يا أستاذة.. شوفي شغلك.. ولا عايزاني أعملك شغلك أنتِ كمان.

رفعت كفيها في الهواء نحوه ولسان حالها يقول «أعرف جملتك المعتادة وأحفظها عن ظهر قلب» ثم تراجعت بظهرها ناحية الباب:

- مش عايزة حاجة تاني مني يا ريس؟

- لا متشكر.. اتفضلي يا استاذة.. شوفي شغلك.. وسيبك من موضوع الأوميجا والألفا وشغل مدرسين الفيزيا ده.. أنا عايز شغل يزود المشاهدات ويرفع الترافيك.

- شغل يهز الرأي العام ويبلبل المجتمع.

- برافو عليك.. يهز ويبلبل.. طول عمرك تلميذتي النجيبة.. وخليك فاكرة يا سمر..

اتسعت ابتسامتها وهي تنتظر أن تسمع تلك الجملة التي لم تتوقف عن اعتبارها العلامة الوحيدة، التي تعلمها بأن هذا الوغد لا زال حيًا.

- في مشاهدات هتقبضي.. مفيش مشاهدات.. هتشحتي.

* * * * *

(6)

مدينة نصر - القاهرة

الثانية عصرًا

السادس عشر من ديسمبر عام ألفين وخمسة وثلاثين

جلست سمر خلف مقود سيارتها الصغيرة، وعيناها لا تفارقان مدخل ذلك المنزل ذي الثلاث طوابق، والذي يحيط به حديقة صغيرة، وسور أنيق من الحجر تتوسطه بوابة حديدية، في أطراف مدينة نصر.

وعلى السور الصغير الأنيق، علقت لوحة من البلاستيك المضاد للمياه، حفر عليه بحروف فضية أنيقة

«دار رعاية إيزيس الجديد»

واسفل الجملة، خط بحروف صغيرة

«إدارة أ. منى سالم»

تنهدت سمر وهمست من بين أسنانها:

- زي ما بيمنح الموت.. بيمنح الحياة.

ثم ابتسمت وهي ترى منى، تتهادى نحو الباب وهي تستند على عصا خشبية أنيقة، وترتدي عوينات شمسية كبيرة غطت نصف وجهها، ومعطفًا كبيرًا من الصوف، أسفله بول أوفر ذا رقبة مرتفعة.

وتذكرت سمر.

تذكرت كيف انهار البناء القديم، وكيف دفنت منى واغلب الأطفال تحت أكوام الأتربة والأحجار وكيف وصلت الشرطة وقوات الإنقاذ

فاقدة الأمل في العثور على ناجين.

وكيف حكى شهود العيان عن النور الأخضر الذي صعد من قلب الأنقاض والركام، ثم رأوا فتاة صغيرة، يتهدل شعرها المجعد فوق جبينها، وإلى جانب وجهها المليح، الذي تكسوه الأتربة، بينما تلتمع عيناها الخضراوان ببريق أضاء ظلمة الليل، وهي تجر في يدها الصغيرة جسدًا متهتكًا يمتلئ بالحروق والتشوهات.

جسدًا ظنوه جثة هامدة، حتى وجدوا النبض الضعيف والأنفاس القصيرة.

جسد منى سالم، السيدة التي أنقذت هؤلاء الأطفال يومًا من التشرد، لينقذها أحدهم.

وجدوها على وشك لفظ أنفاسها الأخيرة، وهي تقبض في كفها على قلادة مصرية قديمة، تحمل تمثيلًا لجسد امرأة لها جناحان لامعان.

قلادة أقسم شهود العيان أنها كانت تلتمع بضوء أخضر.

ثم رحلت منى.

أربعة أعوام خارج مصر في رحلة علاجية طويلة، تعافت فيها من خمس حروق من الدرجة الأولى، وأجرت ست عمليات تجميل، وأضافت طرفين صناعيين لجسدها الناحل، وعينًا بلاستيكية جميلة بدلًا من التي أطاحت بها شظيات الزجاج.

وما أن عادت حتى انتقت تلك البناية الصغيرة في أطراف مدينة نصر وأعادت تأسيس الدار من جديد.

بنفس الاسم.

وأصبحت منى سالم في خلال سنة فقط، رمزًا من رموز الصمود الإنساني، وعلامة من علامات الحركة الخيرية في مصر.

وكلما سألها أحدهم إلى من تنسب الفضل فيما حدث لها، ترد ببساطة:

- اشكر راعي الدار وراعي الشخصي.. فلولاه لم أكن أمامكم الآن.

ابتسمت سمر من جديد، وهي تتذكر كيف عرفت ذلك الراعي السري، وكيف قابلته في مكتب منى منذ شهر، وكيف كان كما هو، مهيبًا مخيفًا يبث الرعب والطمأنينة والأمان والخوف في نفس الوقت في نفوس كل من يقابلونه.

- يا ترى يا منى هتعرفي توصليله.. ولا هتقوليلي لا..

ثم أطفأت محرك السيارة الصغيرة، وراحت تلقي نظرة أخيرة على وجهها في مرآة السيارة.

عندما لمحت تلك السيارة الكورية التي تقف على بعد عدة أمتار منها.

- مممم.. أسلوب قديم مكشوف أوي.

ثم فتحت الباب وهبطت من السيارة، ومشت تتهادى بهدوء فوق

الرصيف الحجري، في اتجاه تلك السيارة، وما أن وصلت إلى مؤخرتها، حتى دارت حولها واقتربت من نافذة السائق.

ثم بدون سابق إنذار، قرعت الزجاج المظلل المغلق بهدوء.

انزلق الزجاج، وظهر خلفه وجه ذو شارب كث، يرتدي عوينات شمسية صغيرة، وعلى وجهه علامات ادعاء جهل لا تخفى على طفل في السابعة.

- بقول لحضرتك ايه.. تعرف اروح ازاي قسم أول مدينة نصر؟

- نعم!

تحولت علامات الادعاء إلى علامات دهشة.

- بقول لحضرتك قسم مدينة نصر.. تعرف اروحله ازاي من هنا؟

- لا مش عارف الحقيقة.

خفضت سمر وجهها إلى مستوى وجه الرجل، فتراجع برأسه إلى داخل السيارة من جديد.

بينما همست سمر وعلى وجهها علامات الجذل:

- بقولك ايه يا حضرة الأمين.. قول للباشا اللي مخليك تراقبني إني معنديش حاجة أخبيها.. ولو كان عايزني في حاجة.. خليه يطلبني وأنا هروح مكتبه وأشرب معاه القهوة.. إنما الشغل ده بقى قديم ومستهلك أوي.

ثم رفعت رأسها، وفردت قامتها وهي تعدل من وضع معطفها الجلدي:

- يومك جميل يا حضرة الأمين.

ثم استدارت لتعبر الشارع نحو باب الدار، عندما صدمها وجود جدار اسود أمامها.

جدار يرتدي سترة جلدية سوداء، وقميص أسود، وتفوح منه رائحة عطر ماركة توم فورد، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة واسعة.

- مساء الخير يا آنسة سمر.

نظرت سمر إلى الوجه الحليق الوسيم المبتسم.

- أهلًا كريم باشا.. هو حضرتك؟

عقد كريم ساعديه أمام صدره واتسعت ابتسامته:

- سامحيني على الطريقة البلدي دي.. أنا قولتلهم إني عايزهم يراقبوكِ من بعيد.. بس توفيق إسماعيل عمل كل حاجة في الوزارة.. إلا التكنولوجيا.

ابتسمت سمر ساخرة، وهي تلتفت إلى أمين الشرطة كث الشارب، الذي هبط من السيارة وتوقف إلى جانبها.

- الموضوع مش تكنولوجيا.. بس الأخ كان ناقصه جرنان مخروم وبالطو كاكي.. شوية ابتكار يعني.

أشار كريم لها بيده، فسارت إلى جواره فوق الأسفلت ناحية سيارتها، وقال في هدوء:

- كنت عايز أتكلم معاك في موضوع ضروري يتعلق بالوالد.. الأستاذ محمود.

- لو عايز تخطبني لازم أوافق أنا الأول.. ولو إنك مسيحي.. يعني ما تجوزليش.

صدرت منه ضحكة مكتومة، وخطر بباله انه لم يفكر يومًا في خطبة إيرين، لكنه طرد الخاطرة من رأسه متابعًا:

- لا الموضوع مش متعلق بخطوبة ولا بنسب.. الموضوع له علاقة بمحمد حارس.

توقفت سمر عن المشي، والتفتت إلى كريم وهي تخفي علامات القلق والتوتر من ذكر اسم محمد حارس أسفل قناع سخريتها:

- وايه علاقة بابا بمحمد حارس؟

- بلاش نضحك على بعض يا سمر.. أنا وأنت عارفين كويس أوي علاقة أبوك.. قصدي الوالد بمحمد حارس.. وايه كمان طبيعة العلاقة دي.

اتسعت ابتسامة سمر وهي تقلب عينيها العسليتين في وجه كريم لبيب الجامد، ثم قالت في هدوء:

- أنت يائس يا كريم باشا.

- نعم!!

- يائس وتايه ومش لاقي سكة توصلك للي قتل الاتنين بتوع الدقهلية والجيزة.. وعايز محمد حارس يساعدك.. عشان أنت عارف وأنا عارفة إن موضوع الأوميجا ده أوله وآخره عند محمد حارس.

- قصدك عند اللي متخفي في قناع محمد حارس.

هزت سمر رأسها بلا مبالاة:

- أيًا كان.. المسميات مش هتفرق يا باشا.

- فلنفترض.. ازاي أقدر أقابل الأستاذ محمود؟

- الأستاذ محمود قاعد في بيته في مصر الجديدة.. ما بيطلعش منه.. روحله وحاول تقابله.. بسيطة خالص.

ثم نظرت إلى ساعتها الأنيقة وهي تتابع دون أن تنظر له:

- ودلوقتي أستأذنك يا كابتن.

- مقدم.. بقيت مقدم يا سمر.

- أستأذنك عشان عندي معاد ضروري.

- عند منى سالم؟

نظرت له مستنكرة، فاتسعت ابتسامته من جديد، ومال برأسه على

أذنها:

- سلميلي عليه.. قصدي عليها.

ثم رفع يده جوار رأسه محييًا، واستدار راحلًا.

بينما وقفت سمر تنظر لظهره في صمت.

وفي رأسها راحت تلتمع فكرة.

وكل شيء يبدأ بفكرة.

*****

(7)

المقطم - القاهرة

الحادية عشرة والنصف مساء

السادس عشر من ديسمبر عام ألفين وخمس وثلاثين

غابت الشمس.

وخرج الضوء من السماء مؤقتا، حتى يشرق وجه إياح الفضي في السماء كما يحدث في تلك الأيام.

لكن إياح اليوم لم يكن ظاهرًا في سماء القاهرة.

خرج المسافر من غرفته في الفيلا، ومشى متكئًا على عصاه الطويلة ناحية الحديقة المطلة على سفح المقطم.

مشى كأنه ينساب فوق العشب، ثم اقترب من نهاية الحديقة عند السور الحجري، ورفع وجهه ناحية السماء، وعيناه تتألقان بلون كسلاسل الفضة.

- أين أنت يا إياح؟ أين أنت؟

ثم أغمض عينيه، وراح يهمهم بكلمات بلغة لا يفهمها بشر ثم فتح عينيه من جديد:

- إياح.. تحدث إليّ.. أرني ما تراه.

ثم ضرب عصاه في الأرض، وراح يتشمم الهواء في جنون ككلب بوليسي مدرب.

- إياح.. أعرف يا صديقي أنك هناك.. خلف السحب السوداء.. ترى كل شيء وتعرف كل شيء.. أعرف أنك تسكن هناك فوق الصخور والجبال.. وتعرف ما لا يعرفه أحد.. تحدث إليّ.. أخبرني!

وعلى مدخل الفيلا، فتح محمد حارس الباب الخشبي، فأصدر صوت صريره العالي الذي ينم عن سوء صيانة، وخطا بقدميه داخل أرضية الفيلا المكسوة بالبورسلين الفاخر، ثم اقترب من الزجاج الفاصل بين البهو والحديقة، وراح يراقب المسافر الواقف في مهابة ينظر إلى السماء.

وهو يرتعش مهمهمًا بكلمات لا يفهمها سواه.

وتذكر أيامًا خوالي كان يقف فيها مشدوهًا وهو شاب صغير يراقب

هذا المهاب وهو ينظر إلى القمر المضيء.

إلى إياح الساكن في السماء.

كان يقف مهيبًا، طويلًا نحيفًا، تلمع عضلات ذراعيه الفتية تحت الضوء المنعكس من وجه القمر الفضي.

يقف وهو يتحدث بلغة لا يعرفها أحد سواه، ويحرك عصاه الخشبية في الهواء وهو يشع بلون فضي لامع كبريق ألف قمر.

ثم يرفع صوته قائلًا:

- الفيضان قادم من الجنوب.. سيفيض النهر العظيم بعد شمسين وقمرين.

ثم يهدأ كل شيء.

وبينما يهيم حارس في بحار الماضي السحيق، سمع صوت خطوات سيف الثقيلة في خفه السميك تقترب منه، وصوت أسنانه التي تقطم أصابع بقسماط صلبة.

أصابع بقسماط!

- ازيك يا حلواني؟

قالها حارس في هدوء وعيناه لا تزالان تنظران إلى المسافر الهائم في بحثه عن إياح المختفي.

- كان لازم أفهم إن عندك عين سحرية بتشوف اللي وراك كمان.

- لا مش عين سحرية.. دي موهبة بسيطة موجودة عند كل الـ.. ما تشغلش دماغك..

ثم التفت إليه نصف التفاتة وقال:

- أومال ميف فين؟

- بيعمل شاي.. كل شوية يخش يعمل شاي.. وبعدين يعمل جنزبيل للمجذوب ..لحد ما بطننا نشفت من الشاي.. وفين على ما لقيت صباعين البقسماط دول في جيب الشنطة..

ثم اقترب منه وقضم من البقسماط في عنف، وقال بفم مليء بالبقسماط:

- هو الأخ المجذوب بيعمل ايه؟

- ده مش مجذوب.. ده ..

ثم صمت باحثا عن كلمة أخرى تكافئ كلمة المجذوب.

لكنَّ عينيه الواقعتين على المسافر الواقف ينظر إلى السماء في مهابة، وجسده يرتعش كالمحموم، جعلته يتوقف عن البحث متابعًا:

- هو مجذوب.. بس مش زي بقية المجاذيب.

- وماله واقف رافع راسه للسما وبيترعش كده ليه؟

هذه المرة، سمع حارس صوت الخطوات الثقيلة، والأنفاس المتلاحقة من التدخين، وشم رائحة الشاي المعطر بأعواد النعناع:

- بينلجي اللي هو مجذوبله يا حلواني.. بينلجي القمر.

- مداح القمر يعني.

قالها الحلواني ساخرًا بفم مليء بالبقسماط، ثم تناول كوب الشاي الساخن من فوق الصينية، ورشف رشفة كبيرة وهو يتابع:

- فين الحاجات يا حارس؟

- فوق.. في الاوضة اللي على الشمال.

- وجبتها ازاي؟ دي أحراز قضية رسمية.. وكريم لبيب ناصب حواليها المتاريس.

تنحنح سيف وهو يربت على كتف حارس، فتناول الأخير كوب الشاي دون أن يرفع عينيه عن المسافر المحموم قائلًا:

- في ناس زيك كده عايزين يساعدوا..

- ناس زيي اللي هم مين يعني؟

زمجر سيف غاضبًا وهو يجلس على مقعده الوثير في ركن البهو وقال:

- أنت ليك أكل ولا بحلقة يا حلواني.

- هو أنت عازمني على أكلة كوارع يا سيف.. دي أحراز قضية رسمية.. أنت عايزني اخرج من الخدمة بفضيحة؟

التفت حارس ناحية مصطفى الحلواني، ونظر في عينيه نظرة

مطولة ثم قال بصوت عميق كأنه قادم من قلب بئر:

- ما تخافش وما تقلقش.. إذا ما نجحناش في مهمتنا دي.. محدش هيبقى فاضي يلومك على حاجة.

اهتز كيان الحلواني، وتوقف فمه عن المضغ، بينما عاد حارس بجسده ناحية الزجاج، وفتح الباب عابرًا بقامته الطويلة الحديقة، واقترب من المسافر الذي هدأ ارتعاشه المحموم.

وكأنما كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها المسافر انقشعت سحابة كبيرة، كاشفة عن وجه البدر الفضي اللامع.

وهنا، ركع المسافر على ركبتيه، واستند إلى عصاه الخشبية، وهو يصرخ بكلمات بلغة قومه القدماء.

كلمات لم يفهمها سوى حارس.

وجسده النحيل يلتمع ببريق فضي ساطع.

بينما راح جسد الحلواني يرتعش من خلف الزجاج.

- سيف.. أنا خايف.. أنا حقيقي خايف.

- لا ما تخافش.. مفيش حاجة تخوف.

- المنظر اللي بيحصل برة ده عادي بالنسبة ليك؟

- خليك متأكد إنك مش هتشوف المنظر ده كتير.. فاعتبره حاجة زي فقرة الساحر.

ثم رشف رشفة من الشاي وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة، وهو يسمع صوت مصطفى العابث في جنبات رأسه:

- وأنت مش خايف يا سيف؟

- هخاف من ايه يعني.. من المسافر المجذوب..

- من الموت يا سيف.. من النهاية.

- كلنا هنموت يا درش.. النهاردة.. بكرة.. بعد سنة.. كلنا هنموت.

ثم رشف رشفة أخرى من الشاي وهو يراقب ما يحدث.

وخلف الزجاج، في نهاية العشب، توقف جسد المسافر عن الارتعاش، وهمدت فورته المحمومة، وانطفئ بريقه الفضي، ثم نهض واقفًا وقال بصوت منهك:

- بيت إمست يا أنبو.. بيت إمست.

اقترب حارس منه وقال بصوت تفوح منه رائحة القلق والترقب:

- أيهم.. أنت تعرف إن بيوت إمست كانت كثيرة.. أيهم يا أخي؟

اقترب حارس منه وقال بصوت تفوح منه رائحة القلق والترقب:

- أيهم.. أنت تعرف إن بيوت إمست كانت كثيرة.. أيهم يا أخي؟

- بيتها الواسع.. بين فرعي النهر.. بيت تنصيب الصقر الملكي.

ثم التفت إلى حارس وقال بصوت متهدج:

- بر حبيت.. بر حبيت.

وهنا التمعت الشرارة في عقل حارس.

يوم انتصبت الأعمدة، وعلقت فيها المشاعل، وخيوط الحرير الملونة.

والعازفات يجلسن على الدرجات الحجرية وهن يعزفن موسيقا حالمة تأتي من عوالم لم تطأها أقدام بشر.

والمنشدون يرددون صلوات العبادة والتمجيد لرب الأرض والسماء.

وإست المباركة تقف في صدر المبنى الحجري، وعلى وجهها ابتسامة أمومية ناعمة.

وأمامها، يركع حور المدجج بدروعه الذهبية، وعلى كتفيه يربض صقر ذهبي العينين والمنقار.

وعن يمينه، يقف عمه رع المبجل، وعن يساره تقف سخمت وقد صبغت وجهها بقناع اللبؤة المحاربة الغاضبة.

وإلى جواره يقف تحوتي وخونسو.

أحدهما يدون بلا توقف، والآخر يرفع عصاه في الهواء وهو يردد صلوات الخضوع للرب الواحد.

صلوات بتاح وأوزير وجب ونوت وأتوم.

وفي اللحظة الموعودة، رفعت إست يدها المرصعة بخاتم أوزير

الأخضر.

فتوقفت العازفات، وصمتت الصلوات، وانحنت الرؤوس مهابة لبنت جب ونوت.

- بأمر الرب الواحد.. وحق بشارة بتاح.. ومعجزة أوزير..

ثم وضعت كفها الناعم فوق كتف ابنها الفتي وحيد العين:

- بحق العين التي انطفأت فداء للأرض السمراء المقدسة.. بحق الأرض التي انشقت لتحمل جسد المبارك أوزير.. وارتفعت لتنصر الصقر على خيانة الخائنين.

ثم دنت منها التفاتة إلى أربعة أجساد وقفت منتصبة مقيدة في سلاسل ذهبية خلف تحوتي، وأغمضت عينيها الحالمتين قائلة:

- أنصبك يا بني آخر المبجلين.. ووصيًا على عهد بتاح وعهد أبيك أوزير.. وحامي عرش الملك إلى أن تفنى الأرض.

آخر المبجلين.

الوصي على عهد بتاح.

حامي عرش الملك إلى أن تفنى الأرض.

وعلى وجه سخمت، ارتسمت ابتسامة نادرة الحدوث.

وعلى وجه رع، نبتت تلك النظرة التي تحمل الكثير.

وفي قلب الصرح، ارتفعت صيحات تابعي حور المخلصين،

وفرسانه الذين نصروه على الشيطان.

القادم من الغرب.

وعلى وجه الأربعة المقيدين، ارتسمت تلك الابتسامة.

الابتسامة التي لن ينساها ما بقيت في أنفاسه بقية.

وسمع الصوت الذي لن ينساه ما بقت روحه في جسده.

سنلتقي يومًا يا ربيب الكلاب.. سنلتقي عندما توشك الحلقة على الانغلاق.

أفاق حارس على صوت عراك عمالقة السماء، وهو ينظر بعين خاوية إلى المسافر العجوز.

ثم سقطت أول قطرة على أنفه الحادة.

- لا بد أن ابلغ الشرطة.. لا بد أن يوقف أحدهم هذا.

- لا وقت لدينا.. لقد تأخر إياح.. وحجبته أذرع هيحو.

ومع صرخات الرعد، سمع صوت المسافر يدوي في أذنه.

- الأربعة.. لا زالوا يتربصون ..

ثم نظر إلى الأفق الملبد بغيوم سوداء متابعًا:

- كما فعلوا بالمحارب.

وانهمرت الأمطار الغزيرة. بلا توقف ..

(8)

بهبيت - سمنود - الغربية

الواحدة والربع صباحًا

السابع عشر من ديسمبر عام ألفين وخمسة وثلاثين

الأمطار تهطل بلا توقف، وتحول الأرض الطينية الزلقة إلى برك قد يغوص فيها المرء فلا يظهر.

وخلف السور الحجري القصين وأمام النقوش المحفورة الصامدة منذ آلاف آلاف السنين.

جلست تلك المرأة في وضع أشبه بجنين نائم في رحم أمه، ملتحفة بأسمال بالية، وتربط شعرها القذر المتشابك بإيشارب بال لا تعرف إن كان لونه أحمر أم ورديًا.

وعلى بعد خطوات منها، وقفت أربعة أشباح متسربلة بالظلام.

ومع لمعان البرق في السماء، ترى أجساد الأربعة تقف مسلطة عيونها الثمانية على المرأة المشردة.

ومن أقصرهم قامة، صدرت الكلمات.

صدرت بلا أن تخرج من شفتيه.

بل مرت كالماء في الأرض الطينية.

- لا أراها تناسب الفداء.

لكن المرأة التي تقف متحفزة، وعيناها الطويلتان الخضراوان تلمعان كالبرق في وجهها المثلث.

- هي لا شيء.. لن يفتقدها أحدهم.. ولن يبكيها أحدهم.

نظر لها العملاق الواقف على يسارها، وقال بصوت شبيه بباب خشبي صدئت مفاصله:

- هكذا الفانون.. لا يبكون إلا من ينفعهم..

ثم نظر إلى المرأة النائمة في تقزز وكبرياء وقال:

- وهي لا تنفع ولا تضر..

ليجيبه النحيف الملتحف بالسواد:

- لا تنكر أنها تصلح.

- لا أنكر.. لكنني لا أرى منها نفعًا.

قالها العملاق الذي يلتف الماء حوله، وكأنه يحن إليه كما يحن الطفل إلى أمه، ثم نظر إلى القصير الواقف أمام المرأة:

- حتى وإن كنت أراها لا تناسب.. لكن الغاية أهم من الطريق.. والغاية أن يأتي الأخير إلينا.

ضحكت المرأة بصوت شبيه بفحيح ألف أفعى.

- إن الرسائل تتوالى على رأسه كالشهب.. ولن يلبث إلا أن يصل إلينا.. وهو ما ننتظره بفارغ الصبر.

رفع القصير يديه النحيفتين إلى جواره، فارتفعت المرأة النائمة قليلًا عن الأرض الزلقة، حتى تبدو للناظر كأنها تطفو فوق سيول الماء.

وهنا، تراجع النحيف الملتحف بالسواد، ورفع ذراعيه إلى السماء ضامًا قبضتيه القويتين، وعباءته السوداء تحجب الضوء الخافت القادم من مصابيح بعيدة؟

حتى صار كأنه يرسم لوحة تأثيرية عنوانها من كلمة واحدة؟

الظلام.

بينما راح القصير المسيطر يرفع يديه من جوار جسده.

وهنا ارتفع جسد المرأة التي أدركت لتوها أنها ليست بمفردها، وأن جسدها الضعيف الملتحف بأسمال بالية يرتفع عن الأرض رغمًا عنها.

حاولت أن تصرخ، لكن صرخاتها انحبست داخل صدرها الضامر بفعل الجوع، وراحت أطراف جسدها الملطخ بالطين تتحرك راسمة وضع المصلوب .. لكن جسدها لم يكن معلقًا، ولا مصلوبًا ولا مقيدًا. كانت مصلوبة إلى الهواء بلا قيد!!

بينما زمجر العملاق، وراح يشيح بيده في الهواء، فراحت سيول من المياه تغمر المرأة المسكينة التي انحبست صرخاتها، وتزيح عنها القذارة والطين الملتصق بجسدها.

وهنا، أنزل العملاق ذراعيه إلى جانب جسده وقال وهو يتفحصها

بنظراته اللامبالية كأنه تاجر يتفحص بهيمة قبل شرائها:

- لا بأس.. هكذا أفضل.

ثم استدار وهو يقول:

- هيا.. فلننه هذا الأمر..

- فقط تأكد أنك تكتم صرخاتها.. وتترك أثرك عليها.

قالتها المرأة الشبيهة بحية مفترسة، فرفع ذراعها ولف قبضة يده في الهواء.

واندفع الماء إلى فم وأنف المرأة المسكينة، التي حاولت أن تصرخ بلا فائدة .. وكأنها ستغرق.

وراحت تشهق وتشهق وتشهق.

بينما راحت المرأة الثعبانية تنظر لها في جشع، وفتحت فاها كاشفة عن زوج من الأنياب المجوفة العملاقة.

بينما راح القصير يلف حبالًا من الليف حول معصمي المرأة، والحبال تتطاير في الهواء بإشارات من أصابعه النحيفة، وهو يردد كلمات غامضة بصوت عميق.

صوت كأنما جاء من الجحيم.

وبأصابع شبيهة بأصابع رسامي العصور الوسطى، راح يحرك أصابعه في الهواء كقائد فرقة موسيقية.

وبرغم الأمطار الغزيرة، والمياه التي تغمر جسد المسكينة. راحت خيوط من النار تغزو جسد المرأة. وتمزق ثيابها. وتمشي على صدرها كأنها تتحرك بريشة فنان مجنون. وترسم ذلك الرمز على صدر المرأة التي أوشكت أن تسلم الروح.

وبعد أن انتهى، وانخفضت أصابعه المرتعشة إلى جانب جسده القصير النحيل، قال في هدوء كأنه فنان أنهى قطعته الفنية الخالدة:

- إنها لك.. فلتنه الأمر.

وكأنما كانت المرأة في انتظار كلماته، ارتسمت ابتسامة شيطانية على وجهها المستطيل.

ثم فغرت فكها وهي تضحك ضحكتها الفحيحية. ومع دوي الرعد واصطدام صاعقة غاضبة بالأرض المبتلة انقضت الحية الآدمية طائرة على المرأة المسكينة المصلوبة بين العمدان الحجرية.

ونبشت أنيابها في وجه المرأة بلا رحمة.

** تمت **